مقال وجهة نظر

خصائص ومفاهيم جديدة تحتاج للبحث في ظاهرة رسوم الأطفال بالرغم من الاهتمام السابق والحالي لهذه الظاهرة.

* مصطفى محمد عبد العزيز
*أستاذ تحليل التعبير الفني لفنون الأطفال والبالغين، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
البريد الإليكتروني: drmostafama@hotmail.com

تاريخ المقال:
- تاريخ تسليم البحث الكامل للمجلة: 17 يناير 2022
- تاريخ موافقة هيئة التحرير على النشر: 25 ديسمبر 2022

مقدمة:

لماذا يرسم الأطفال بهذه الطريقة التى يرسمون بها؟ هذا السؤال يوجهه كثيراً من الآباء والأمهات، والمعلمون، والمعلمات والعديد من الباحثين والباحثات المهتمين بسيكولوجية الفن، والتصور، والتفكير، وهذا "السؤال" دليل على الاهتمام بدراسة رسوم الأطفال، إذن فلماذا نقوم بدراسة هذه الرسوم؟ إن النظرة الأولى لهذه الرسوم تشير إلى أنها تتصف بالإبتكارية، والبساطة، والتلاعب بالأفكار والأشكال، والجمال مما يحبب النظر إليها. وإذا تعمقنا أكثر فى نظرتنا إلى هذه الرسوم نجدها تشير إلى دلائل على ظواهر عامة للحياة الإنسانية، ونجدها أيضاً (الرسوم) تمثل مجموعة من التعبيرات عن بحثنا عن النظام فى عالم شديد التعقيد، كما نجدها كنماذج اتصال، وكمؤشرات على نوع المجتمع الذي نعيش فيه، وكعلامات على التطور الفكري، بالإضافة إلى كونها كعوامل تذكرنا ببراءتنا المفقودة، ونشاطنا.

الكلمات المفتاحية: رسوم الأطفال، خصائص، مفاهيم جديدة.

إن رسوم الأطفال هى رسوم تلقائية، فهى ليست تقليداً أو نسخاً من الواقع، وهى تنبع من الداخل حيث الأفكار والإنفعالات والدوافع، وإذا قمنا بدراسة هذه الرسوم فإننا نقوم فى الوقت نفسه بالكشف عن حقائق متصلة بالجوانب العامة للنمو، وبخصائص التفكير وحل المشكلات بين الأطفال والكبار، إذن فرسوم الأطفال يمكن تشبيها بقمة جبل جليدى تحتوى على الكثير تحت سطحها.

مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت موجات اهتمام البحث العلمي بظاهرة رسوم الأطفال في ضوء متغيرات متنوعة واستمرت موجات البحث العلمي هذه حتى يومنا هذا، فما هي الخصائص والمفاهيم التي تحتاج للبحث في هذه الظاهرة الآن، وفي ضوء الإجابة على ذلك يثير الباحث السؤالين التاليين:

السؤال الأول: مع موجات الإهتمام السابقة والحالية بالرسوم يثار سؤال أول هو : هل مازال هناك الكثير من الظواهر توجد فى الرسوم تحتاج إلى الفهم والبحث؟؟ ونقصد هنا بالرسوم الرسوم بوجه عام.

إن الإجابة على السؤال الأول ستكون بـ "نعم" للأسباب التالية

أ- بالرغم من الدراسات التى تناولت "الرسوم" فما زالت هذه الرسوم غامضة، لأن ما نعرفه عنها مجزءاً ومقسماً: رسم الصور، ونسخ الأشكال الهندسية فكلها نطلق عليها رسوم، وكلها تتميز بسمات مشتركة، ولكنها موزعة فى مجالات متصلة هى مجالات الفن والكتابة والجغرافيا، ويرى العلماء أنه إن لم نتمكن من العثور على مفاهيم تربط فيما بينها فإننا أمامنا طريق طويل حتى نفهم أى مجال منها.

ب- إن الكثير مما نعرفه عن الرسوم ما زال فى مستوى منخفض، مع العلم أن هناك العديد من المشكلات لم تتعرض بالبحث، أو جرى بحثها بطريقة أولية تنتابها الكثير من الملاحظات على المنهجية العملية وأدوات البحث.

ج- إن اختبار فكرة للبحث فى الرسوم هو موضوع معقد ومتشابك، ويتضمن الاختبار أساساً سؤلين : ما الذى نختبره؟ وكيف نستطيع أن نختبر؟ ونقول عادة أننا نختبر لنعرف ما إذا كانت فكرة صحيحة أم لا، ونحكم على الحقيقة بمعرفة كيف تتمكن أى فكرة من تحقيق العلاقات بين الأحداث؟ أو كيف تتمكن جيداً من التنبؤ بحوث جديد؟

عمليا نحن نحكم على أى فكرة بفائدتها وكذلك بصحتها، ونهتم بها سواء أثارت أسئلة جديدة أو طرق جديدة لمشاهدة الظواهر حيث تجعلنا نرى الأشياء فى ضوء مختلف، أو نلاحظ أشياء لم نهتم بها من قبل.

هذه الرؤية المنفعية أو المقيدة للفكرة أو الأفكار قد تسبب بعض المشكلات حيث أنها لا تتفق جيداً مع مفهوم الباحثين الذين يطرحون نظريات فقط، أو يدرسون نظريات صحيحة دائماً.

وهذا المفهوم يسبب أيضاً بعض المشكلات لاسيما عندما يتعين علينا إدراك أن معظم أفكارنا تقتصر على ما نعرفه حالياً، وهى تتأثر بالزمان والمكان الذى نعيش فيه، ومن المحتمل أن يحل محلها أفكار نراها أكثر صواباً وصحة من الأفكار التى نعرفها الآن.

كما أننا لا نتأكد عملياً أيضاً من منفعة أو حقيقة فكرة بدراسة كل الحالات المحتملة، أو بإجراء تجربة شاملة وكاملة، ومن الأفضل ببسطة الإشارة إلى علاقة أو اختلاف لنبين مثلا أن رسما ما به بعض الخصائص، أو أن رسمين متشابهين فى الطريقة وغير متشابهين فى طريقة أخرى.

إن اختبار الرؤية المنفعية فى هذا الصدد يدور حول ما إذا كان الملاحظ لديه طريقة جديدة للرؤية أم مجموعة جديدة من الأسئلة، وتتخذ معظم التحليلات فى مجال الفن هذا الشكل، وهو شكل اختبار مقيد، ولكنه ليس الاختبار الوحيد الذى يمكن إجراؤه.

ومن الممكن مثلاً إجراء إختبار آخر (بحث آخر) فى شكل معرفة ما إذا كنا قادرين على التنبؤ عندما نتنبأ بحدوث بعض أنواع الرسوم فى ظل وضع بعض أنواع الشروط وهذا الشكل من البحث أو الاختبار هو الذى يجب أن نراه كثيراً فى دراسات رسوم الأطفال حيث يتم ضبط المتغيرات المستقلة والتابعة والدخيلة.

السؤال الثاني: يثار سؤال ثان فى ظل موجات الاهتمام السابقة واللاحقة بالرسوم هو : هل المفاهيم الجديدة متوفرة.

إن الإجابة على هذا السؤال الثانى ستكون بـ "نعم" أيضاً أى أنه ما زالت هناك مفاهيم جديدة متوفرة، وفيما يلى سوف نتناول ثلاث خطوط عمل تمثل طرق معالجة للرسوم تثبت القضية كوسيلة للتغلب على تجزيئى وتقسيم المجال، كما أن هذه الخطوط الثلاثة تتقاطع بعضها مع بعض، ومع العديد من الموضوعات المهمة، وهى لا تقتصر على دراسات الرسوم الجرافيكية فقط (فى مجال الفن) فهى ترتبط بين الرسم وسلوك آخر (متغير آخر) مثلا علاقة ثنائية ربما تضيف لفهمنا للرسم والسلوك بصفة عامة، وهذه الخطوط الثلاثة هى:

أولاً : تحليل الأنماط **Analysis of Patterns**

ثانياً : الإهتمام بالنتائج أو التتابع أو التسلسل

Attention to sequence

ثالثاً : دراسة أسئلة التعادل أو طبيعة التشابه والإختلاف

Study of questions of equivalence, or the nature of 'same' and 'different'

وفيما يلى إلقاء الضوء على خطوط العمل السابقة والتى تمثل طرقاً لمعالجة الرسوم

أولاً : تحليل الأنماط (الفراغية) Analysing Spatial Patterns

يقدم أى شكل من أشكال الأنماط سواء كان نظام أو ترتيب فى خلايا أو فى أوضاع أشخاص فى حجرة، أو نظام ووضع المبانى فى مدنية، أو فى ملامح وجه، أو فى العلاقات بين الأفكار أو بين الناس فى شجرة العائلة... تحديا يتمثل أولا حول "الوصف" "description" كيف نصف أى نمط؟ بل كيف نصفه بحيث يسمح لنا بأن نكون محددين تحديداً دقيقاً يظهر الفروق بين هذا النمط ونمط آخر؟ وكيف تستخدم هذا الوصف بالطرق التى تسمح لنا بربط خصائص نمط ما بحدث آخر أو متغير آخر مثال : ربط نمط الشوارع بسهولة الحركة، وربط نمط الوجه بتأثير الجاذبية، ونمط الأفكار مع سهولة استيعاب معلومات جديدة، أو نمط الخلايا مع حدوث النمو

ينطبق هذا التحدى على مظاهر الرسوم، فهى أنماط تتكون من وحدات أو عناصر مرتبطة ببعضها البعض، وهذه الوحدات قد تكون من أنواع عديدة: نقط وخطوط، ودوائر، ومربعات، وكتل وغير ذلك، وهذه الأنواع ترتبط من ناحية أخرى بالعديد من الطرق والعديد من التأثيرات، وكيف يختار الأفراد بعض الوحدات أو العلاقات بدلا من وحدات وعلاقات أخرى؟ وما هى نتائج هذا الإختيار.

تحت مصطلح التركيب 'composition' ظهرت أسئلة من هذا النوع السابق لطلاب الفن وذلك منذ زمن بعيد مثل : ما هو ترتيب الوحدات الذى ينتج تأثيرات من نوع معين ؟ وما هى نوع الترتيبات والنظم التى تنتج الإحساس بالتوازن أو الوحدة أو الإيقاع أو الحركة أو الدهشة؟ وعلى سبيل المثال يساعد ترتيب وحدة بالتكرار مثلا أو بترتيب سيمترى Symetrical على إحداث الإحساس بالوحدة فى الرسوم، كما أن الخطوط المائلة تنقل الإحساس بالحركة، أو التوتر، بالإضافة إلى أن كسر نمط مكرر يساعد على إنتاج إحساس بشىء جديد .

وفى مجال رسوم الأطفال يمكن الحديث كمثال عن جانب واحد من جوانب التركيب أو الترتيب وهو تنظيم النمط حول نقطة مرجعية مثل خط الأرض 'ground-line' أو خط الوقوف 'stand- line' (خط التقاء القدمين مع الأرض) ويرى الكبار أن الخط الأفقى فى الرسوم هو عادة القاعدة أو الأرض، ولكن الأطفال لا يلاحظون دائماً هذه النقطة فنجد أن بعض الأطفال يرسمون جميع أفراد الأسرة واقفين على الأرض المعتادة، ولكن بعض الأطفال الآخرون يرسمون أفراد الأسرة أو الأفراد عامة بطريقة تبدو لنا كأنهم محلقين فى الهواء أو مقلوبين رؤوسهم لأسفل وأقدامهم لأعلى (شكل 1) :

شكل (1) عائلتان: لا يستخدم جميع الأطفال الخط الأفقى كخط للأرضية

ومن الملاحظ أن تكون رسوم المداخن على زاوية 90° مع سقف المنزل بدلاً من الخط الأفقى للأرض، وبنفس الطريقة يكون رسم الأفراد بزاوية 90 ° على خط "تل" بدلاً من الخط الأفقى للأرض.

إن الفروق بين الأعمال الزمنية المختلفة فى خطوط الأرض كنقطة مرجعية تمثل ظاهرة مؤكدة ومحددة جيداً، ولكن السؤال هنا : كيف تحدث هذه الفروق فى النقاط المرجعية (سواء خط الأرض أو النقط المرجعية الأخرى) وللإجابة عن هذا السؤال يرى كل من جان بياجيه'Jean Piaget وباربيل أنهيلدر 'Barbel Inhelder أن رسم المداخن عند زاوية 90 ° مع السقف يعكس جانب عام فى التطور الذهنى للطفل، وليس مجرد ظاهرة منعزلة فى الرسم[1]، ويعتقدان أن الأطفال الذين يفعلون ذلك ليسوا قادرين على استعمال جميع النقاط المرجعية (النقاط المرجعية الأخرى غير خط الأرض) لجميع الوحدات فى الرسم، ولكنهم يعتمدون على وحدة واحدة كمرجع لوحدة مجاورة

إن الأطفال عندما يرتبون مجموعة من القوالب أو العصى فى سلسلة مثلاً، أو عندما يرسمون تخطيطاً لغسيل فى خط، فإنهم يرسمون من وحدة إلى وحدة تالية دون مراعاة مجموعة الوحدات بالنسبة للكل.

(1) J. Piaget and B. Inheldee, The Child/s Conception of Space (London: Rutledge, 1956)

وعندما يتمكن الأطفال، ضمن أشياء أخرى، من النسخ من خلال علاقتين أو أكثر، عندئذ فقط يستطيعون مراعاة نقطة مرجعية بعيدة هى : أنهم يجب أن يكونوا قادرين على التفكير فى المدخنة بالنسبة للسقف والأرض كما هو الحال مع ترتيب عصا فى سلسلة بالنسبة للعصى على الجانبين أو عندما يكون هناك فرداً مرتبطاً بطرق مختلفة مع آخرين مختلفين كأمه أو أخته أو غير ذلك.

فى ضوء ما سبق فإن القدرة على الرسم أو النسخ بعلاقات متعددة تعتمد على نمو ما أطلق عليه "بياجيه" عمليات operations" وهى القدرة على تنفيذ تغير أو تحول فى عقل الفرد، وليس فى الواقع المادى لتخيل تأثير التحول وتوقع النتيجة، وهذا يعنى أن العين تحتفظ بعلاقة واحدة فقط فى التركيز، وعلى العقل أن يركز على علاقة أخرى.

ما الذى يمكن إضافته هنا إلى معرفة طريقة إختيار وحدات ووضعها معاً؟ إن ما يمكن إضافته أو الإهتمام به هو النقاط المرجعية فى سياق تسلسل الرسم مع بداية الخطوات فى التسلسل الذى يستخدم كنقاط مرجعية لخطوات تالية، وفى شكل (2) يمكن ملاحظة رسم الأشخاص والتفكير فى كيفية رسمها:

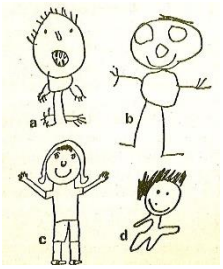

شكل(2) الفراغات كحدود بين الوحدات : أجزاء الجسم وحدات كاملة ومنفصلة فى (a) بينما غير ذلك فى (d)

فى الرسم (a) يتكون الشكل من وحدات منفصلة بدقة: الشعر والأسنان والأصابع كلها موجودة فى مكانها المنعزل

فى الرسم (b) بعض الوحدات مرتبطة : مثلا الرأس والجذع مع بعض ولكن بدون خط مشترك عند الحدود

فى الرسم (c) يوجد توليفة من الوحدات المرتبطة والمنعزلة

فى الرسم (d) يوجد خط (كنتور contour) مفرد يربط جميع أجزاء الجسم بخلاف الرأس، وتقدم الحدود والأسوار والفراغات طريقة لوصف الفروق بين الأنماط، وهى نقطة تركيز لإهتمامنا بتسلسل استعمال أنواع معينة من النمط.

وهناك أنواع مختلفة من الحدود والأسوار فمنها يتكون من إضافة أو حذف أجزاء من الوحدات الأصلية، وعندما يحذف الأطفال رسومهم بعض أجزاء من الجسم ويتركون مثلا الذراعين واليدين والأصابع فإننا قد نشك عادة فى أن هناك شىء غريب يحدث عند إدراكهم للعالم المحيط لأن جميع الأطفال يجب أن يعرفوا أن الناس جميعاً لديهم أذرع، وأقدام، وغير ذلك، وبالتالى فإن الرسوم يجب أن تحتوي عليها، فلماذا يحذف الأطفال بعضها كثيراً جداً.

إن من أسباب ذلك صعوبة استخدام بعض الأجزاء فى أى شكل لبناء الجسم، فعندما يعتمد رسم شخص على خط يشمل كل الأجزاء كما فى (d) من شكل (2) فإنه من الصعب رسم اليدين والأصابع أثناء رسم الصورة بخط واحد مستمر، ولذا عندما يحاول الأطفال رسم كل الأجزاء بخط واحد مستمر تكون النتائج غير متوقعة للمشاهد.

إن طبيعة الخط أذن تجعل من الصعب إدراج بعض الأجزاء فى الجسم المرسوم، ولكن قد يحدث أحياناً كثيرة أن الحذف قد يأتى من مبدأ آخر يوضح أنماط الكثير من الأطفال، وهذا المبدأ يطلق عليه "كل شخص له الفراغ الخاص به " أو " كل شخص له حدوده to each its own space ' or ' to each its own boundary' خذ مثلاً صورة الشخصين فى شكل 3:

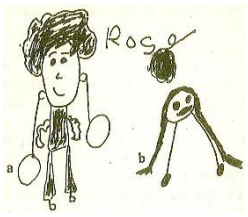

شكل (3) مشكلة المساحة المتاحة: تم حذف الذراعين أو تم رسمها لتجنب عبور الخطوط

فى شكل (3) البنت على اليسار (a) لها ذراعين منحنيين وذلك بسبب الحلق الضخم فى أذنيها، والبنت فى (b) ليس لها ذراعين بسبب ضفيرتى الشعر الطويلتين والسميكتين اللتين تحتلان مكان الذراعين. إن الأطفال يرسمون بطريقة تترك أو تحذف الفراغ المادى المتاح فى الصفحة لبعض الأجزاء كما أنهم يرون بعض الفراغ على أنه غير متاح من الناحية السيكولوجية، واستخراج مثل هذا الفراغ يعنى عبور الحدود وإنتهاك المساحة التى تنتمى لجزء آخر، أو بتكوين مساحة مريحة بين الأجزاء وكل ذلك يظهر كأنه من عالم آخر غير عالمنا.

وبإيجاز يمكن أن نجد طرقاً لوصف الأنماط التى تساعد فى وصف الفروق بين الأنماط (أيضاً) ويكون لها نتائج، وتلتقي أيضاً نفس الأوصاف مع معيار ثالث للمنفعة تتداخل مع أشكال الوصف المستخدمة فى موضوعات أخرى غير الرسم فكرة الحدود، وعدم إنتهاكها نسبياً، فمثلا عند وصف العلاقات بين الأفكار وبين

الناس، وبين الناس من ناحية المساحات المادية فإننا نحاول الحفاظ على هذه المساحات بيننا وبين الآخرين فى حياتنا العادية، فالرسوم تكشف عن رؤية بعض الجوانب العامة للسلوك تتجاوز الأشياء المرسومة نفسها.

ثانياً: الإهتمام بالنتائج أو التتابع أو التسلسل:

التسلسل Sequence والإتجاه direction من الجوانب الهامة للعديد من الأنشطة: مثل قيادة سيارة، ولعب الشطرنج والسير وعزف البيانو وتنظيف المنزل وتوجيه أسئلة وإلقاء خطبة والإنفاق المالى، فى كل هذه الأنشطة وأنواع السلوك المختلفة فإن نقطة البداية تسبب نجاح العملية كلها فإن البداية الجيدة هى نصف النجاح.

وفى كل هذه الأنشطة أيضاً فإن كل خطوة تؤثر على الخطوات التالية الممكنة إما بزيادة أو تخفيض خياراتنا، ففى كل عملية شراء (مثلا) من الميزانية تؤثر على ما يمكن عمله بالنقود الباقية، وكل قطعة أثاث يتم شراؤها للحجرة تؤثر على بقية قطع الأثاث. وقد نختلف بعضنا البعض فى القيود التى نسمح بها فى الخطوة الأولى ووضعها على بقية الخطوات، وفى طريقة التعامل مع هذه القيود، ولكن فى كل الأحوال فإن الخطوات المبكرة يكون لها دائماً بعض التأثير.

هذا الإهتمام بالتسلسل يأتى جزئياً من الأعمال المبكرة التى قام بها "ك. س لاشيلى K.S. Lashley الذى رأى بصفة عامة أن فهم طبيعة العمل المتتابع هو أساس لفهم طبيعة المهارة Skill[2] أما القاعدة العريضة لاهتمامنا هى ظهور نظرية المعلومات "information theory" وهى النظرية التى جاءت من علوم الكمبيوتر والتى كان من نتائجها بعض الأفكار التى ارتبطت بالسلوك الإنسانى، وتؤكد نظرية المعلومات على التتابع فى السلوك ووصف التغيرات فى البدائل عند كل اختيار فى أى حدث أو قرار وكل هذا يمكن تطبيقه بسهولة على الأنشطة الخاصة فى مرحلة الطفولة.

وكمثال على ما سبق أن علماء النفس درسوا "التتابع" فى ألعاب الحظ بالطريقة التى يلعب بها الأطفال "20 سؤال أو حيوان أو نبات أو معدن، والطريقة التى نبحث بها عن اسم أو عدد أو مدينة فى خريطة، إن طبيعة تسلسل الطفل هى مرشد لتنمية استراتيجيته أو مهاراته، وهى أيضاً نموذج لمشكلة مستمرة فى جميع أشكال "معرفة كيف 'knowing how' أى تطور الترتيب الكافى فى سلسلة: (enough to make it easy to keep track for instance) بدون الوقوع فى الروتين الذى تضيع معه المرونة كلها.

والسؤال الآن: كيف تنطبق النقاط السابقة على الرسوم؟

فى الحقيقة لم يكن هناك اهتمام كثير بالتتابع فى الرسوم بإستثناء أعمال م.ل.ج أبير كروبى "M.L.J. Abercrombie" ودافيد اولسون "David Olson"، الكسندر مارشاك "Alexander Marshack" ، وكان "أبيركوبى" يهتم بصفة خاصة برسوم الأطفال ذوى شلل العمود الفقرى، وكيفية تتابع العين وحركات اليد بعضها مع بعض [3]، أما "أولسون" فقد طرح جدلاً عاماً بأن تركيبات الأطفال الجرافيك يجب أن نراها كتتابع لعدة خطوات وكل خطوة تعطى الخيار بين الخطوات التالية البديلة[4]، وطبق هذا المبدأ على طريق نسخ الأطفال للخطوط على لوح مربعات من خطوط افقية ورأسية ومائلة وعلى مشكلة صعوبة الخطوط المائلة عند نسخها. أما أشهر هؤلاء العلماء الثلاثة على الأقل خارج عالم السيكولوجيا هو ربما " مارشاك A. Marshack " [5] فكانت تحليلاته لرسومات الكهوف المبكرة تتحدى صورتنا عن الإنسان البدائى بإعتباره ذى إنجاز فكرى متدنى عند تحليل أو تسجيل الأحداث المعقدة مثل مرور المواسم أو تنظيم الوقت على مدار العام، وقد اعتمد "مارشاك" فى تحليل المعنى بدرجة كبيرة على تحليل "التتابع أو التسلسل" كما توضحه رسوم الفرشاة وعلامات الترتيب الأخرى.

والسؤال هنا، هل يمكن أن يساعدنا التتابع على فهم رسوم الأطفال للشكل الإنسانى وتركيباتهم للأشكال الهندسية البسيطة والحروف؟

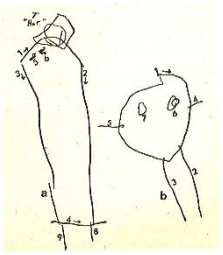

شكل (4) كيف يتغير تتابع الطفل خلال أسبوعين

فى شكل (4) نرى رسمين لنفس الطفل، الرسم الأول (a) : يبدأ تتابعه فى الوسط، ويستمر نحو السيقان، ثم يعود إلى أعلى

(2) K.S.L. a shely, ' The problem of serial older in behaviour, in L.A.Jeffress (ed) cerebral Machanisms in Behaviour : The Hixon Symposium (New York: Wiley, 1951)

(3) M.L.J. Abercrombie, R L.Lindon and M.C. Tyson, 'Direction of drawing movement' Developmental Medicine and child Neurology, 1968, 10, 83-97

(4) D.R. Olson, Cognitive Development : The Child's Acquirstion of Diagnality (New York and London: Academic Press, 1970)

(5) A . Marshack, The Roots of Civilization (New York: McGraw Hill, 1972). A Marshack, Upper Paleolithic notation and sympbol, science, 1972, 178, 817-28

نقطة وهى القبعة، وبعد أسبوعين نرى الرسم (b) الذى تغير فى النسب وأيضاً فى التتابع، البداية من أعلى وترتيب أجزاء الجسم من الساق اليمنى إلى الساعد اليسرى والذراع الأيمن ثم الذراع الأيسر والعين اليمنى فالعين اليسرى .

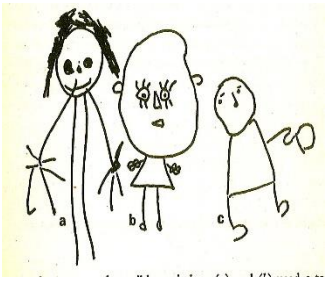

شكل (5) التتابع وإمكانية الحذف

إن الترتيب يحدث بعض الفروق وذلك عندما ينسى الطفل أي شيء فعلى سبيل المثال شكل (5) الذى يوضح ثلاث رسوم لأشخاص : (a), (b) مرسومان في تسلسل مع توافق الأعضاء الزوجية : برسم ذراع مباشرة بعد الذراع الأخرى وساق بعد الأخرى، وفى الرسمان بدأ الطفل أيضاً من أعلى إلى أسفل بدون عودة للخط، كل شيء مرتب ولم ينسى الطفل أى شيء (الإ ما نطلق عليه الجسم أو الجزع) فى رسم (a)

وعلى العكس من ذلك يستخدم الطفل فى الرسم (c) ترتيب مبعثر ونسى رسم ذراع. إن التسلسل المنظم ليس بالطبع هو الطريقة الوحيدة للتأكد من أن جميع الأجزاء موجودة كما أن التتابع المنظم قد يكون خطراً، ويزيد احتمال الخطأ إذا كان التسلسل المعتاد يتعين تعديله أو تركه هذا النوع من التأثير يتضح بصفة خاصة مع الأخطاء فى أشكال تشبه الحروف.

بالإضافة إلى مميزات وعيوب الطريقة الروتينية فإن التسلسل فى الرسوم له جانب آخر يتعلق بطريقة وضع جزءاً من القيود على جزء آخر، ومن أكثر الجوانب التى تلفت الإنتباه فى رسوم الأطفال القيود التى يضعونها لأنفسهم، فعلى سبيل المثال :

- طريقة رؤية الأطفال للأجزاء التالية عند الحفاظ على الترتيب مع الأجزاء الأولى
- طريقة نجاحهم فى الهروب من بعض القيود للمتابعة من الخطوة الأولى التى قد تكون عشوائية. إن ما يساعدنا على فهم رسوم الأطفال هو أن نبدأ فى رؤية تلك القيود فى التسلسل التى تساعدنا فى فهم العديد من خصائص الرسوم من عمليات الحذف، أو رسم شكل الإنسان بالمقلوب، إلى رسم الحروف المعكوسة، واستخدام لازمة "الشفافية".

ثالثاً : دراسة أسئلة التعادل أو طبيعة التشابه والإختلاف:

إن جزءاً كبيراً من تعليمنا هو معرفة أى شيء يرمز إلى آخر، أو نطلق عليه نفس الشيء: الصور الفوتوغرافية توضح أشخاص، والكلمات ترمز إلى أشياء، والقمر فى جميع مراحله هو نفس القمر، وبعض الحيوانات تنتمى إلى نفس النوع، فالحيوانات ذات الأرجل الأربعة تمثل مجموعة يطلق على بعضها قطط، أو كلاب.

إن معرفتنا الثابتة عن الشيء مهما تغير كالقمر هو قمر فى جميع مراحله، والأب هو نفس الأب سواء بلحية أو بدون، والأم هى نفس الأم فى أوضاعها المختلفة بقبعة أو بدون.. كل ذلك يطلق عليه "معرفة الهوية "The recognition of identity".

وجزء من هذه المعرفة والتى تتعلق بتعلم الكلمات والصور الفوتوغرافية والأشكال المتعددة على الورق ترمز أو تنطبق على أشياء أخرى أو أحداث أخرى يطلق على هذه المعرفة تعلم الأشياء المتساوية أو المتعادلة، وقد ترتبط هذه الأشياء المتساوية بعضها مع البعض، فمثلا B,A يرمزان لنفس الحروف الأبجدية وصوتها ولذلك فإنها شيء واحد ونفس الشيء.

وفى هذا المجال الواسع من تعلم التساوي يمكننا أن نتحدث عن إدراك الأشياء المتساوية، ولا سيما طريقة تعلم القراءة أو فك شفرة شيء متساوي موجود أمامنا، ونتعلم معرفة بعض الكلمات التى ترمز لأشياء معينة، كما نتعلم قراءة الصور الفوتوغرافية واللوحات والموسيقى.

وقد نتحدث أيضاً عن إنتاج أو اختراع أشياء متساوية وهذا هو المجال الأكثر اهتماماً فى رسوم الأطفال.

والسؤال هنا : كيف تتطور الأشياء المتساوية؟

قد ننظر إلى التاريخ فى مجمله باعتباره مصدراً للمعلومات، معلومات عن تاريخ اللغة، أو تاريخ الفنون، أو تاريخ التدوين الموسيقى، كما ننظر إلى اختراعات الأطفال سواء للأشياء المتساوية فى التصنيفات الجديدة التى ينتجونها، أو سواء فى المفردات الجديدة التى يخترعونها.

إن الاختراعات من هذا النوع ذات أهمية كبيرة لطلاب اللغة لأنها توضح أن هناك معادلات أو مساويات جديدة تتطور عادة بتعديل شيء موجود فعلا فى حياتنا، ويكون التعديل متفقاً مع بعض القواعد المحددة، ويبدو هذا فى التعليم والمحاكاة، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأطفال اكتسبوا أرضاً جديدة منذ نتائج بياجية التى تشير إلى أن الأطفال يشاركون مشاركة إيجابية فى التعلم، ويبنون رؤيتهم الخاصة للعالم بناءاً فعالا.

والسؤال الآن:كيف تنطبق هذه النقاط السابقة على الرسوم ؟

أن الرسوم تعد أشياء معادلة أو مساوية حيث تحتوي فقط على بعض خصائص الأشياء الأصلية التى تم رسمها، وهذه الخصائص تظهر عادة وفق التقاليد التى تحدد الخصائص التى يتعين إظهارها وبأى طريقة يتم ذلك ولرسم شكل إنسان مقبول، أو خريطة مقبولة فإننا نحتاج عادة إلى بعض خصائص الشكل الأصلي ومظاهرة، ولكن الخصائص الدقيقة قد تتباين من مناسبة لمناسبة أخرى، ومن فنان إلى فنان آخر، ومن جمهور إلى جمهور آخر.

إن الصور المكونة من نقط أو عصى والمقبولة فى اسكتش سريع ليست مقبولة فى البورتريهات، ويختلف الفنانون إذا اختلفت المدرسة الفنية التى ينتمون إليها ولذا سوف يختلف الفنانون أصحاب الاتجاه التجريدى عن الفنانون أصحاب الاتجاه الواقعى، ويختلف الأطفال عن الكبار اختلافاً واضحاً فى نوع وعدد من السمات الموجودة، وقد يطلب جمهور قدراً كبيراً من التفاصيل قبل إدراك الرسم أو قبوله، بينما يكون هناك جمهوراً آخر كما يقول إ.هـ. جومبريتش "E.H. Gombrich" لديه إستعداد أكثر للفهم السريع.

ولما كانت الرسوم المتساوية بها شىء من الغموض فى علاقتها مع ما ترمز إليه فإن :

(1) شيئين متساويين أو أكثر قد يرمزان أحياناً إلى نفس الشىء ومثال ذلك النقطة، أو الخط، أو الدائرة، أو المثلث يمكن أن ترمز جميعاً للأنف.

(2) شىء واحد قد يرمز لشيئين أو أكثر ومثال ذلك الدائرة قد ترمز إلى كرة، أو بطيخة، أو رأس، أو حفرة، أو ثقب، أو رغيف خبز أو كف يد أو قمر.. وهذا الغموض مهم عندما يرسم الأطفال رسوما لأشخاص، ومهم أيضاً فى تطور رسوم خرائطهم ونماذجهم وأشكالهم التخطيطية.

إن مجال الرسوم يمكن أن نلاحظ ونكتشف فيه طرق تطور الأشياء المتساوية، ويذكر "جومبريتش" بعض الأمثلة الجميلة فى تاريخ الفن توضح الطريقة التى فيها شىء معادل جديد (مثل رسم مدينة جديدة، أو حيوان غريب مثل الحوت أو وحيد القرن) بتعديل بسيط لشىء معادل قديم، حتى وإن كان الهدف منه أن يشبه الحياة أو الواقع تماماً[6]، ومناظر اللاندسكيب "Landscapes" للريف أو المدن الجديدة أو المدن القديمة تعد من المصادر الجيدة التى توضح ذلك، واللوحات المبكرة لمناظر اللاندسكيب الإسترالى مثلا تشبه مناظر اللاندسكيب الإنجليزية، حيث الريف مرتب، وذو لون أخضر، بينما الأشجار تتدلى مثل شجرة الصفصاف، وترى الأنهار والجداول ناعمة

ومع وجود السجلات التاريخية ما الذي يمكن إكتسابه بالنظر إلى رسوم الأطفال، واختراعاتهم للأشياء المعادلة أو المساوية فى هذه الرسوم؟

إن التاريخ لا يذكر لنا الكثير عن تغيرات الأطفال وسط الكبار من عنصر الى آخر، ولكن يمكن أن يقدم لنا الأطفال فرصة لإكتشاف الأشياء المساوية، ويمكننا أن نطلب منهم أشياء متساوية معينة ونلاحظ ملاحظة مباشرة كيف يتم حل هذه المشاكل المحددة، ويمكن أن يكون التركيز على الأشياء المتساوية التى من المحتمل أن تسبب صعوبة وبذلك تتطلب إختراع أو اختيار جديد للخصائص المطلوب إدراجها.

– إن البحث عن شكل لشخص مثلا هو يمثل البحث عن معادل له ولكنه شىء نرى معظم الأطفال قد مارسوه إلى حد الصيغ الروتينية.

– إن البحث عن خريطة يتضمن شىء جديد، كما يرغم الأطفال على البحث عن طريقة لتوضيح بساطة وجود الأشياء، والعلاقات بينها، أى أوضاعها النسبية.

– أن البحث عن معادل لشىء لا يوجد عادة فى رسوم الأطفال فى عمر زمني معين (مثل حركة شخص يجرى، أو ينحنى) من 5-10 سنوات، يحقق نفس الهدف. عند النظر إلى رسوم الأطفال هذه والتى تتطلب صفات محددة، وإلى الرسوم التلقائية، فإننا نكتسب أساساً قوياً باحترام اختراع الأطفال خذ مثلا الرسم التلقائى الموضح فى شكل (6):

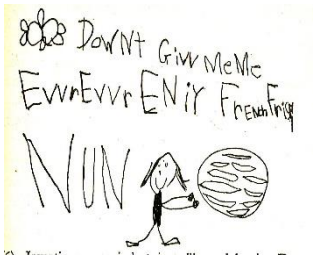

شكل (6) اختراع أشياء معادلة جديدة فى الهجاء والرسم:
لا تعطى Mei – Mei (أى محمرات فرنسية) أبد أبداً، ولا أى قطعة.

(6) E.H. Gombrich, Art and Illusion (London: Phaidon, 1960)

الشكل السابق لطفل عمره خمس سنوات واستجابت شقيقته بحماس أكثر من المتوقع لرسمه الغامض وكتبت: يمكنك أن تأخذ بعض المحمرات الفرنسية (مثل الشبسى)

إن الهجاء نفسه إختراع فى حد ذاته، وتوسع فى بعض قواعد الصوتيات، ولكن الرسم أيضا محاولة لاخترع شىء معادل صعب للحركة، وما فعله هذا الطفل هو شىء نراه كثيراً فى تطور الأشياء الجديدة المتساوية، لقد عدل النسخة القديمة أولاً بعمل تغييرات فى جزء واحد فقط، وفى هذه الحالة الذراعان فقط هما المختلفان عن الصورة المعتادة

ونلاحظ أيضاً صعوبة العثور على الأشياء المتساوية مع العلاقات بين الأشياء أو الأحداث، ويمكننا أن نوضح بسهولة رسما لشخصين، أو مبنيين بجوار بعضهما بعمل قائمة بكل من الأفراد أو الأشياء الموجودة في المنظر، ولكن المشكلة فى عرضهما معاً أو فى علاقة مع بعضهما البعض فهذا موضوع آخر.

وأخيراً فإننا نخرج من النظر في الأشياء المعادلة أو المساوية باحترام قوى للقدر الكبير من التعلم المطلوب من الأطفال لكي يكونوا قادرين على قراءة العديد من الأشياء المعادلة البصرية التى تستخدمها أى ثقافة، أيضاً تعلم إنتاج الأشياء المتساوية بخصوص الجيد والمقبول، ويبدو أن قدر قليل من هذا التعلم يوجهه الكبار، ولكن الأطفال يبدو أنهم يستثمرون فترة زمنية كبيرة، ومجهود أكبر، فى ملاحظة العالم المحيط من حولهم، وصياغة تورية، أو كناية، فى استنباط النتائج.

إن هذه النقاط العديدة السابقة تؤدى إلى فهمنا مرة أخرى للخصائص العامة للتفكير والتعلم، حيث تبين النتائج أهمية اعتبار الأطفال بصفة عامة مشاركين مشاركة فعّالة فى التعلم، وفى قواعد التوسع ومبادئه، كما تبين النتائج أيضاً إلى أى مدى أن التطور هو عملية أخذ وعطاء وتفاعل ثنائى: ابتكارات الأطفال من ناحية، واستجابة الجمهور من ناحية أخرى .

References:

(1) A . Marshack, The Roots of Civilization (New York: McGraw Hill, 1972). A Marshack, Upper Paleolithic notation and sympbol, science, 1972.

(2) D.R. Olson, Cognitive Development : The Child's Acquirstion of Diagnality (New York and London: Academic Press, 1970).

(3) E.H. Gombrich, Art and Illusion (London: Phaidon, 1960).

(4) J. Piaget and B. Inheldee, The Child/s Conception of Space (London: Rutledge, 1956).

(5) J. Piagt and B. Inhelder, The Psychology of the child (London: Routledge, 1969).

(6) K.S.L. a shely, ' The problem of serial older in behaviour, in L.A.Jeffress (ed) cerebral Machanisms in Behaviour : The Hixon Symposium (New York: Wiley, 1951).

(7) M.L.J. Abercrombie, R L.Lindon and M.C. Tyson, 'Direction of drawing movement' Developmental Medicine and child Neurology, 1968.